

الفصل التاسع

من بواعث الإخلاص

هناك أمور تعين المسلم السالك طريق الله على إخلاص النية والعمل لله تعالى . إنها بواعث نفسية ، ودوافع روحية ، وعوامل فكرية ، وجوانب عملية ، إذا توافرت وتوطدت فهي جديرة أن تؤثر في عقل السالك وضميره ، وتدفعه إلى الأمام في طريق المخلصين ، وتساعده على تحرير نفسه ، وتنقية دواعيه من الشوائب الذاتية والدينيوية .

• العلم الراسخ :

١ - أول هذه المعينات أو البواعث : أن يعلم علماً يستيقنه في أعماقه بأهمية الإخلاص وضرورته الدينية ، وثمراته في الدنيا والآخرة ، وأن الله تعالى لا يقبل عملاً إلا بإخلاص ، مهما تكن صورته ، وأنه تعالى مطلع على ما في قلبه ، فهو يعلم السر وأخفى ، ولا تخفى عليه خافية . كما قال إبراهيم عليه السلام : ﴿ رَبَّنَا إِنَّكَ تَعْلَمُ مَا نُخْفِي وَمَا نُعْلِنُ ، وَمَا يَخْفَى عَلَى اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ ﴾ (١) .

ولا يتم ذلك إلا بأن يقرأ ويكرر ما جاء في القرآن والسنة من ذلك ، وما جاء في كلام الصالحين ، ويستيقن من خطر الرياء ، وحب الجاه والشهرة ، وحب الدنيا . . وتأكد هذه المعارف في النفس ورسوخها يعينها على أن تتخلص من أهوائها الذاتية ، ومن شهواتها الدينيوية .

فإن مقام « الإخلاص » كغيره من المقامات أو الأخلاق الربانية مركَّب مكون من ثلاثة عناصر :

١ - عنصر معرفي إدراكي .

(١) إبراهيم : ٣٨

٢ - وعنصر وجداني انفعالي .

٣ - وعنصر عملي إرادي .

وهو ما يعبر عنه الإمام الغزالي في « الإحياء » عادة بأنه معجون مركب من :
علم ، وحال ، وعمل .

ولا ريب أن أول هذه العناصر هو العلم والمعرفة . فالعلم هو الذي يسبق
في الوجود ، ولا يمكن أن يتوجه الإنسان إلى شيء لا يدركه ولا يعلمه بوجه
من الوجوه ، إنما يأتي التوجه الوجداني - المحبة والرغبة ، أو البغض والرهبة
- نتيجة للمعرفة والإدراك . وكلما قويت المعرفة ، ورسخ العلم ، حتى وصل إلى
درجة اليقين ، كان تأثيره في الوجدان أقوى وأعمق ، فالمرء يعرف أولاً ،
فيتأثر ثانياً ، فيتحرك ثالثاً . وهذا ما أشار إليه القرآن في قوله تعالى : ﴿ وَلَيَعْلَمَ
الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ فَيُؤْمِنُوا بِهِ فَتُخْبِتَ لَهُ قُلُوبُهُمْ ﴾ (١) .
كان إعطف هنا بحرف « الفاء » للدلالة على الترتيب والتعقيب . فهؤلاء الذين أُوتوا
العلم يعلمون أن القرآن هو الحق من عند الله ، فيرتب على هذا العلم الإيمان به ،
ويترتب على هذا الإيمان : حركة قلوبهم بالإخبات والخشوع لله تعالى .

• صحبة أهل الإخلاص :

٢ - وما يعين على الإخلاص : صحبة أهل الإخلاص ومعايشتهم ،
والحياة في رحابهم ، ليتأسى بهم ، ويأخذ عنهم ، ويتخلّق بأخلاقهم ، فإن
التأسى بهم صلاح ، والتشبه بهم فلاح .

وقد صورَّ النبي ﷺ أثر الصحبة والمجالسة في الصاحب والمجالس تصويراً
بليغاً معبراً ، فقال : « إنما مثل الجليس الصالح والجليس السوء ، كمثل حامل
المسك ونافخ الكير ، فحامل المسك إما أن يحذيك (أى يعطيك) وإما

أن تبتاع منه ، وإما أن تجد منه ريحاً طيبة ، ونافخ الكير إما أن يحرق ثيابك ، وإما أن تجد منه ريحاً خبيثة » (١) .

ومن رحمة الله بالناس : أن الأرض لا تخلو من هؤلاء ، فليجتهد سالك طريق الآخرة في البحث عنهم ، والاقتباس منهم ، فهم كما جاء في الصحيح : « هم القوم لا يشقى بهم جليسهم » (٢) .

لقد نوه الحكماء والشعراء والأدباء بالصحبة والأصحاب . وقال في ذلك الشاعر :

عن المرء لا تسأل ، وسل عن قرينه فكل قرين بالمقارن يقتدى

لا ريب أن من أعظم البواعث على الإخلاص : صحبة المخلصين ، الذين نذروا حياتهم لله ، وباعوا أنفسهم وأموالهم لله ، هؤلاء الذين حالسوك في الله ، ويحبونك في الله ، وتحبهم في الله . . ليسوا من الذين يقبلون عليك ، ويلتفون بك ، إذا أقبلت عليك الدنيا ، ويعرضون عنك إذا أدبرت عنك الدنيا ، فهم ذباب طمع ، وفراش نار .

هؤلاء الذين أمر الله رسوله الكريم أن يصبر نفسه معهم ، ولا تعدو عيناه عنهم ، وذلك في قوله سبحانه : ﴿ وَأَصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ ، وَلَا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ تُرِيدُ زِينَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ، وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ عَنْ ذِكْرِنَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ وَكَانَ أَمْرُهُ فُرُطاً ﴾ (٣) .

إن الذي يصحب هؤلاء يتأثر بهم ، ويأخذ عنهم ، ويقتبس منهم فضائلهم ، بالأسوة الحسنة ، وبالحال المؤثرة ، ولهذا قال السلف : « حال رجل في ألف رجل ، أبلغ من مقال ألف رجل في رجل » . يعنون بحاله : سلوكه وخلقه وعمله .

وقد جاء عن سلمان رضي الله عنه : « مثل الأخوين المؤمنين كمثل اليدين تغسل إحداهما الأخرى ، وما التقى مؤمنان قط إلا أفاد الله أحدهما من صاحبه خيراً » .

(١) متفق عليه عن أبي موسى ، كما في « المتقى من الترغيب والترهيب » : حديث (١٨٧٢) .

(٢) من حديث طويل رواه البخاري (١٧٧/١ ، ١٧٩) ومسلم برقم (٢٦٨٩) عن أبي هريرة .

(٣) الكهف : ٢٨

المهم ألا تعيش وحدك ، ولا تخلد إلى صومعة العزلة ، وحياة الرهينة ، فلا رهبانية في الإسلام ، والمؤمن الذي يخالط الناس ويصبر على أذاهم ، خير من الذي لا يخالط الناس ولا يصبر على أذاهم ، والخير والرحمة مع الجماعة ، والهلاك والضياع مع الانفراد والشذوذ عن الجماعة . ويد الله مع الجماعة ، وَمَنْ شَدَّ سَدًّا فِي النَّارِ ، وَالشَّيْطَانُ مَعَ الْوَاحِدِ ، وَهُوَ مِنَ الْاِثْنَيْنِ أَبْعَدَ ، وَإِنَّمَا يَأْكُلُ الذُّبَّ مِنَ الْغَنَمِ الْقَاصِيَةَ ، فَهِيَ مَعَ الْقَطِيعِ مَحْمِيَةٌ بِهِ ، مُحْرُوسَةٌ بِبِرْكَةِ التَّجْمَعِ ، وَهِيَ إِذَا شَرَدَتْ عَنْهُ التَّهْمَةُ الذُّبَّ مُنْفَرِدَةً ، وَالشَّيْطَانُ هُوَ ذُبُّ الْإِنْسَانِ . والمرء قليل بنفسه كثير بإخوانه ، والجماعة قوة على الطاعة ، وعون على الحماية من المعصية .

فتعرَّف على إخوانك في الله ، وضع يدك في أيديهم ، وتعلَّم منهم وعَلَّمهم ، وتعاون معهم على البرِّ والتقوى ، وتواصل معهم بالحق وبالصبر ، تعرَّف عليهم في المساجد ، وفي مجالس الخير ، وفي حلقات العلم ، وفي ميادين الدعوة ، ولا تخلو الأرض - إن شاء الله - منهم . قال تعالى : ﴿ وَمِمَّنْ خَلَقْنَا أُمَّةً يَهْدُونَ بِالْحَقِّ وَبِهِ يَعْدِلُونَ ﴾ (١) . وقال تعالى : ﴿ وَالْعَصْرُ * إِنَّ الْإِنْسَانَ لَفِي خُسْرٍ * إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَتَوَّصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَّصَوْا بِالصَّبْرِ ﴾ (٢) ، فأوصي غيرك بالحق ، وتقبل الوصية من غيرك به ، وليس هناك مؤمن أصغر من أن يوصي ، ولا أكبر من أن يوصي . وهذا معنى التواصي ، الذي يقتضي التفاعل من الجانبين ، وقد قال تعالى : ﴿ وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ ﴾ (٣) . وفي الحديث : « المؤمن مرآة المؤمن » .

* *

● قراءة سير المخلصين :

٣ - وما يعين على الإخلاص ، ويبعث عليه : قراءة سير المخلصين ، والتعرف على حياتهم ، للتأثر بهم ، والاهتداء بهداهم ، فإذا لم يستطع السالك إلى الله أن يجد المخلصين الأحياء ليصاحبهم ، فلا أقل من أن يصحب المخلصين الأموات ، فإن الأخلاق كالأفكار لا تموت بموت أصحابها .

(٣) التوبة : ٧١

(٢) سورة العصر كاملة

(١) الأعراف : ١٨١

فهذه القراءة لون من الصُّحبة والمعاشة ، ولكنها صُحبة فكرية ونفسية ، ومعاشة روحية وإيمانية .

ومن فضل الله تبارك وتعالى : أن فى تراثنا كثيراً من « النماذج المخلصة » التى لا يملك من قرأها إلا أن يتأثر بها .

من هذه النماذج نموذج الثلاثة « أصحاب الغار » الذين قصَّ علينا قصتهم رسول الله ﷺ . حين أطبقت عليهم الصخرة ، فلم ينجهم منها إلا أعمال صالحة كانوا قدَّموها خالصة لوجه الله تعالى ، فتوسَّلوا إلى الله بها ، وقال كل واحد منهم : « اللَّهُمَّ إِنْ كُنْتَ تَعْلَمُ أَنِّى فَعَلْتُ ذَلِكَ ابْتِغَاءً وَجْهَكَ فَفَرِّجْ عَنَّا مَا نَحْنُ فِيهِ » . ففَرَّجَ اللهُ عَنْهُمْ ، وأَخْرَجَهُمْ مِنْ وَرْطَتِهِمْ بِسَبَبِ إِخْلَاصِهِمْ . وقد مرَّ بنا هذا النموذج مفصَّلاً فليُرجع إليه (١) .

ومن هذه النماذج ما جاء فى الحديث الذى رواه النسائى فى سننه عن شدَّاد ابن الهاد رضى الله عنه : أن رجلاً من الأعراب جاءَ إلى النَبِيِّ ﷺ فَأَمَّنَ بِهِ وَاتَّبَعَهُ ، ثم قال : أَهَاجِرُ مَعَكَ ، فَأَوْصَى بِهِ النَّبِيُّ ﷺ بَعْضَ أَصْحَابِهِ .

فلما كانت غزاته غنم النَبِيِّ ﷺ فَقَسَمَ وَقَسَمَ لَهُ ، فَأَعْطَى أَصْحَابَهُ مَا قَسَمَ لَهُ ، وَكَانَ يَرَعَى ظَهْرَهُمْ ، فَلَمَّا جَاءَ دَفْعُوهُ إِلَيْهِ ؛ فَقَالَ : مَا هَذَا ؟ قَالُوا : قَسَمَ قِسْمَهُ لَكَ النَّبِيُّ ﷺ ، فَأَخَذَهُ ، فَجَاءَ بِهِ إِلَى النَّبِيِّ ﷺ فَقَالَ : مَا هَذَا ؟ قَالَ : « قَسَمْتُهُ لَكَ » .

قال : ما على هذا اتَّبَعْتُكَ ، ولكن اتَّبَعْتُكَ عَلَى أَنْ أُرْمَى إِلَى هَاهُنَا - وَأَشَارَ إِلَى حُلْفِهِ - بِسَهْمٍ ، فَأَمُوتَ ، فَأَدْخَلَ الْجَنَّةَ ؛ فَقَالَ : « إِنْ تَصَدَّقَ اللهُ بِصَدَّقِكَ » .

فلبثوا قليلاً : ثم نهضوا إلى قتال العدو ، فَأَتَى بِهِ إِلَى النَّبِيِّ ﷺ يُحْمَلُ ، قَدْ أَصَابَهُ سَهْمٌ حَيْثُ أَشَارَ ، فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ : « أَهْوَ هُوَ ؟ » قَالُوا : نَعَمْ ، قَالَ : « صَدَقَ اللهُ فَصَدَقَهُ » .

ثم كَفَّنَهُ النَّبِيُّ ﷺ فِي جُبَّتِهِ الَّتِي عَلَيْهِ ، ثُمَّ قَدَّمَهُ فَصَلَّى عَلَيْهِ ، وَكَانَ بِمَا ظَهَرَ مِنْ صَلَاتِهِ : « اللَّهُمَّ هَذَا عَبْدُكَ ، خَرَجَ مُهَاجِراً فِي سَبِيلِكَ ، فَقُتِلَ شَهِيداً ، أَنَا شَهِيدٌ عَلَى ذَلِكَ » .

(١) مرَّ بنا فى ص ١٠٩

ومن ذلك : ما حفل به التاريخ الإسلامى من روائع البطولات ، ووقائع المخلصين الذين نذروا أنفسهم لله ، وجعلوا حياتهم كلها لله ، وجهادهم كله لله ، فلم يشركوا به أحداً .

من هؤلاء : ما كتبه الإمام حسن البنا رضى الله عنه فى أحد أحاديث الجمعة فى جريدة « الإخوان المسلمون » اليومية عن « صاحب النقب » ؛ وتتلخص قصته فى أن المسلمين فى إحدى معاركهم وقفوا أمام حصن منيع من حصون عدوهم ، وطال حصارهم لهذا الحصن ، ثم فكر أحد الجنود فى فتح ثغرة أو نقب فى جدار الحصن ، يتسلل منه ، ويفتح الباب للمقاتلين المسلمين .

فعل ذلك الجندى المسلم ، ونقب النقب وحده فى هدوء وصمت ، مما مكن المسلمين من تحقيق النصر المنشود بأقل التضحيات .

المهم أن قائد المعركة بحث عن « صاحب النقب » الذى كان وراء هذا النصر ، ولم يتقدم أحد يقول : أنا هو . فخطب فى جنوده قائلاً : أقسمت بالله على من نقب النقب أو عرف صاحبه إلا دلّنى عليه .

وبينما القائد فى خيمته دخل عليه رجل ، وقال له : هل تريد أن تعرف صاحب النقب ؟ قال : نعم والله .

قال : أنا أدلك عليه ، ولكن له شروطاً يطلبها . قال : له كل ما يشترط ، فما شروطه رحمك الله ؟ . قال : ألا تسأله عن اسمه ، ولا تعلن عنه فى الناس أو إلى الخليفة ، ولا تكافئه على عمله . قال : له ذلك ، فأين هو ؟ قال : أنا هو ! فقام القائد وعانقه . فطالبه بالوفاء بالشروط ، فلم يملك القائد إلا الاستجابة ، وذاب هذا الجندى المجهول فى المحيط الكبير ، فلم يره أحد بعد ذلك .

فكان القائد يدعو الله أن يحشره مع صاحب النقب ، وأن ينصر دينه به وبأمثاله من أهل الإيمان والإخلاص : ﴿ هُوَ الَّذِي أَيْدَكَ بِنَصْرِهِ وَبِالْمُؤْمِنِينَ ﴾ (١) .



● المجاهدة للنفس :

٤ - ومن المعينات على الإخلاص : المجاهدة . ونعني بالمجاهدة توجيه الإرادة إلى جهاد النفس الأمارة بالسوء ، ومقاومة رغباتها الذاتية والدينية ، حتى تخلص لله تعالى .

ولا يستطيع أحد أن يسلك طريق القوم ، وهو مستسلم لأهواء نفسه ، وحبها للجاه والظهور ، وطموحها إلى الشهرة والثناء ، أو للثروة والمال ، أو لغير ذلك من شهوات النفس ، وزخارف الدنيا . وإنما يسلك الطريق من اصطحب معه إرادة قوية ، وتصميماً على المجاهدة ، و« الإرادة » هي الأساس ، و« المجاهدة » هي المحور .

وإن أخطر شيء على سالك الطريق هو اليأس من الانتصار في هذه المعركة ، وإلقاء السلاح اعترافاً بالهزيمة النفسية ، أو إقراراً بالعجز أو باستحال الوصول . وقد كان بعض الحكماء يكره من أصحابه وتلاميذه كلمات ثلاثاً ؛ هي : لا أقدر ، لا أعرف ، مستحيل .

فأما مَنْ قال له : لا أقدر ، فيقول له : حاول .

وأما مَنْ قال له : لا أعرف ، فيقول له : تعلّم .

وأما مَنْ قال له : مستحيل ، فيقول له : جرب .

ولا شك أن في مجاهدة النفس صعوبة ومعاناة ومشقة ، يجدها مَنْ يريد طريق الآخرة ، وخصوصاً في أول الأمر ، ولكن بالاجتهاد والمحاولة والتكرار والصبر ، والاستعانة بالله تعالى ، يسهل الصعب ، ويتيسر العسير .

(١) الانفال : ٦٢

وهذه سنة الله في خلقه : أن من جد وجد ، ومن زرع حصد ، ومن سار على الدرب وصل ، وهذا وعد الله سبحانه لمن جاهد فيه : أن يهديه سبيله وينير له طريقه ، كما قال تعالى : ﴿ وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا ، وَإِنَّ اللَّهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ ﴾ (١) .
وهذه الآية مكية ، أى أنها نزلت قبل أن يشرع الجهاد بالمعنى العسكرى ، فهى أحق بأن تكون فى ألوان الجهاد الأخرى ، وفى مقدمتها : جهاد النفس ، وهو أول مراتب الجهاد وأولها .
وفى الحديث الشريف : « المجاهد من جاهد نفسه لله » ، أو قال : « فى الله عز وجل » (٢) .

* *

● الدعاء والاستعانة بالله :

٥ - ومما يقوى ذلك كله ويشد عضد سالك الطريق إلى الله : أن يستعين بالله تبارك وتعالى على أمره كله ، فمنه وحده العون ، وبه التوفيق ، وإليه يرجع الأمر كله . وقد علمنا الله تعالى أن نقول فى صلواتنا أبداً : ﴿ إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ﴾ (٣) . فهذه هى حقيقة التوحيد : إفراد الله عز وجل بالعبادة والاستعانة ، فلا عبادة إلا له ، ولا استعانة إلا به تبارك وتعالى ، وفى الصحيح : « استعن بالله ولا تعجز » (٤) .

والدعاء سلاح المؤمن ، وسبب من الأسباب الروحية التى شرعها الله للإنسان ليحقق مطالبه ، ويسد حاجاته .

وعندما تعجز وسائل الإنسان المادية ، أو تضعف قدرته ، أو تهين إرادته ، فليس أمامه إلا باب الله الكريم ، يطرقه بالدعاء ، ويسأله من فضله ، وهو أهل الإجابة ، وقد مر بنا الحديث الذى علمه لنا رسول الله ﷺ : « اللَّهُمَّ إِنَّا نَعُوْذُ بِكَ مِنْ أَنْ نَشْرَكَ بِكَ شَيْئاً نَعْلَمُهُ ، وَنَسْتَغْفِرُكَ لِمَا لَا نَعْلَمُهُ » .

* * *

(١) العنكبوت : ٦٩

(٢) رواه عن فضالة بن عبيد : أحمد فى « المسند » : ٢٠ / ٦ ، ٢٢ ، والترمذى فى « الجهاد » ، وقال : حسن صحيح .

(٣) الفاتحة : ٥

(٤) رواه مسلم عن أبى هريرة .